فضل العلم والعلماء

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، نبينا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.. وبعد:

فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في موضع واحد من صحيحه في كتاب العلم باب «من عَلِمَ وعلّم»، وأخرجه الإمام مسلم (ح٧٩)، وأخرجه أحمد (ح١٩٥٨٨).

راوي الحديث

هو عبد الله بن قيس بن سُليم بن حضار بن حرب، الإمام الكبير صاحب رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري التميمي الفقيه المقرئ، قال الإمام الذهبي: هو معدود فيمن قرأ على النبي ﷺ اقرأ أهل البصرة وفقههم في الدين، قرأ عليه حطان بن عبد الله الرقاشي، وأبو رجاء العطاردي في الصحيحين عن أبي بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا». استعمله النبي ﷺ ومعاذًا على زبيد وعدن (باليمن)، وولي إمرة الكوفة لعمر، وإمرة البصرة، وغزا وجاهد مع النبي ﷺ، وحمل عنه علمًا كثيرًا، ولم يكن في الصحابة أحدٌ أحسن منه صوتًا.

شرح الحديث

الغيث: المطر. نقية: من النقاء، وفي رواية الحميدي وعند الخطابي «ثغبة»، قال الخطابي: هي مستنقع الماء في الجبال والصخور، وغلط القاضي عياض هذه الرواية وقال: إنه إحالة للمعنى لأن هذا وصف للطائفة الأولى التي تنبت، وما ذكره يصلح وصفًا للثانية التي تمسك الماء، وفي مسلم: «طائفة طيبة»، وهي بمعنى «نقية»، وروي «بقعة» قال ابن حجر: وهو بمعنى طائفة، لكن ليس ذلك في شيء من روايات الصحيحين، وقال ابن رجب: وفي رواية «بقية» قال: والمراد بها القطعة الطيبة كما يقال: فلان بقية الناس.

قبلت الماء: من القبول، ووقع عند الأصيلي «قيلت» وهو تصحيف، كما قال الحافظ في الفتح.

الكلأ: النبت الرطب واليابس. العشب: النبت الرطب. فهو من عطف الخاص على العام.

أجادب: جمع جَدَب وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء، وفي رواية أبي ذر الهروي: «إخاذات» جمع إخاذة وهي الأرض التي تمسك الماء.

قيعان: جمع قاع، وهي الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت.

إعداد
زكريا حسيني

www.altawhed.net
موقع مسجد التوحيد ببلبيس

فُقُه: بضم القاف، أي صار فقيهًا، قال ابن التين: رويناه بكسر القاف والضم أشبه.

المعنى الإجمالي للحديث

نقل ابن حجر عن القرطبي وغيره قولهم: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت، فكذلك علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع من العلم، لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فأداها كما سمعها». ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها، وإنما جمع بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها، والله أعلم.

قال الحافظ: ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين؛ فالأول قد أوضحناه، والثاني الأولى منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه، ومثالها من الأرض السباخ، وأشير إليها بقوله ﷺ: «من لم يرفع بذلك رأسًا» أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع غيره، والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلاً، بل بلغه فكفر به، ومثالها من الأرض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا ينتفع به، وأشير إليها بقوله ﷺ: «ولم يقبل هدى الله الذي جئت به».

ثم نقل عن الطيبي قوله: بقي من أقسام الناس قسمان: أحدهما الذي انتفع بالعلم في نفسه ولم يعلمه غيره، والثاني من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره، ثم قال ابن حجر: قلت: والأول داخل في الأول لأن النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه، وكذلك ما تنبته الأرض فمنه ما ينتفع الناس به، ومنه ما يصير هشيمًا. وأما الثاني فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه، وإن ترك الفرائض أيضًا فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه، ولعله يدخل في عموم: «من لم يرفع بذلك رأسًا».

فضل العلم

لقد حث الله تبارك وتعالى على طلب العلم ورغب فيه وبين فضل العلم والعلماء في آيات كثيرة من القرآن الكريم؛ من ذلك قول الله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وقد عطف الله عز وجل أولي العلم على نفسه سبحانه وعلى وملائكته، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، كما أمر نبيه ﷺ بأن يدعو ربه أن يزيده علمًا ولم يأمره بطلب المزيد من أي أمر آخر غير العلم، فقال جل شأنه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ورسول الله ﷺ رغب في طلب العلم، وبين فضل العلماء في أحاديث كثيرة منها حديثنا هذا وما أخرجه مسلم رحمه الله تعالى من قول رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة». إلى غير ذلك من الأحاديث.

ولقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى طبقات المكلفين في الدار الآخرة، فذكر الطبقة الأولى وهم أولو العزم من الرسل، ثم الثانية وهم بقية الرسل، ثم الثالثة وهم الأنبياء الذين لم يرسلوا إلى أممهم فاختصوا عن الأمة بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم. ثم ذكر الطبقة الرابعة فقال: هم ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علمًا وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله تعالى في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم

www.altawhed.net موقع مسجد التوحيد ببلبيس

من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، فمرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين؛ آية سورة النساء وهذه الآية في سورة الحديد، وكذلك جاء ذكرهم مقدمًا على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان». متفق عليه.

ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له رضي الله عنه، ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى: والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئًا من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْر النَّعَم». متفق عليه.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء». رواه مسلم.

وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيرًا يفقهُ في الدين». متفق عليه، ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فيا لها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها، أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة، أوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. انتهى ملخصًا من مدارج السالكين.

هذا، ونحن مع بداية عام دراسي جديد، فتحت أبواب المدارس والمعاهد لتستقبل الطلاب والمعلمين، فإذا استشعر الطالب أنه يتعلم العلم لوجه الله تعالى، ثم لينفع به نفسه ومجتمعه، واستشعر المدرسُ أنه يُعَلِّم العلم ابتغاء وجه الله، ولكي تنهض الأمة فترقى إلى مصاف الأمم المتحضرة، وليستعيد المسلمون عزهم ومجدهم، فإنه لن يعود إليهم عزهم ومجدهم إلا بالعلم الذي يعيدهم إلى دينهم فيتمسكون به، ويعلمون بما علمهم الله تعالى، فيرقون خلقًا وسلوكًا، وتصح عباداتهم بعد أن تصلح عقائدهم، فيوحدون الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ولا يشركون به شيئًا، ويتبعون سنة نبيهم ﷺ فلا يبتدعون بدعة في الدين ولا يغيرون ما كان عليه سلف الأمة، وليعلموا أن مجاراة غير المسلمين وملاحقتهم لا يكون في خُلُق ولا تقاليد ولا دين، وإنما يقلد الكفار فيما يصلح من أمور التطور الصناعي أو الزراعي أو التجاري، ومع ذلك يجب ضبطه بأوامر الله عز وجل، فإننا نتميز عن غيرنا بشرع ربنا الذي أوحاه لنبينا وحفظه علينا.

فإذا أدى كل منا ما وجب عليه، وقام بالمسئولية الملقاة على عاتقه وأدى الأمانة التي كُلِّفَها فحينئذ يستقيم أمر الأمة، ويبارك الله تعالى في جهود أبنائها وتنهض من كبوتها، وتصحو من رقدتها.

وإن الإخلاص في طلب العلم- سواءً كان علمًا مما يتعلق بالدنيا أم مما يتعلق بالآخرة- يجعله مباركًا ويؤجر الطالب على طلبه وتصلي عليه الملائكة، بل تضع أجنحتها له رضا بما يصنع، وأما المعلم فإنه إذا استشعر أنه يؤدي أمانة ويعلم العلم ابتغاء وجه الله تعالى مخلصًا لمهنته التي هي وظيفة الأنبياء، فإن كل من ينتفع بعلمه كلما اهتدى به كان لعلمه مثل أجره دون أن ينقص من أجر تلميذه شيء، وهكذا يستمر هذا الأجر على مر الزمان ويسجل في سجل حسناته.

آداب المعلم والمتعلم

١- إخلاص النية لله تعالى. ٢- عطف المعلم على تلميذه وشفقته عليه والحرص على نفعه. ٣- احترام عقول المتعلمين، والاستيثاق من المعلومة قبل إلقائها عليهم، ولا حرج أن يقول لمن سأله منهم: لا أعلم ولا سيما إن كانت المسألة من المسائل الفقهية التي تحتاج إلى رجوع للأدلة وكلام الفقهاء. ٤- على الطالب أن يحترم معلمه، ويبجله، ويعرف له فضل تعليمه إياه. ٥- أن يلزم الأدب عندما يناقشه في مسألة من المسائل، ولا يبدي لأستاذه أنه يعلمُ في المسألة خلاف رأيه فيها.

www.altawhed.net موقع مسجد التوحيد ببلبيس